11

غزة – الهاجس 2009

نعم، لنَر. سيكونُ هناك غزة قريبًا! غزة أيضًا من جديدٍ ودائمًا غزة. تعودُ مثلَ كيدٍ عليكَ يرتدّ. على الضّربِ مصممةٌ وللموتِ جاهزة. تموتُ وتحيا في الآن ذاته. معاديةٌ ومرحبة، جريحةٌ ملطخةٌ بالدّماء، ممزقةُ الجسد. لكنَّ غزّتي تصرخُ كما لو كانت فَرِحَة، كما لو كانت بطلة. تنبضُ في داخلي، لا تدعني، أنا ابنتها وهي أمي. لطالما أنجبت في كل مكانٍ أطفالًا وحطامًا وغبارًا وركامًا ووحوشًا لتحميها. لا تُقهر، غزتي! صغيرتي، عملاقتي، محبوبتي. تُخْرِجُ أنيابها المحترقة، تأبى طحْنَها وترفضُ اغتيالها، تدافعُ عن نفسها وترجعُ لتجثم في أعماقي. لا تحميني بل تحتفظُ بي في حضنِها، في حرّ ورطوبةِ غبارها. تدعني ألغو بما شئتُ عنها. غزتي لا نهائية خالدة.

تطلُّ على البحر، تواجه تهديدَ انتهاكِها وانفتاحها. تنوءُ بأحزانِ وهشاشةِ جرحاها، تدلُّلهم وتتخلى عنهم. لا يمكنُها اخفاءَهم، لا مأوى لديها، هم جزءٌ من منظرها، من جسدِها المشوّه والصّلب بآن. لا تتركُ نفسها تُغتصب، لا تدعُ نفسها تُنتزع، ثغراتُها كثيفة، معجونةٌ بلحم بشري. لا تسمحُ لسّمٍ أن يعبر، تقاوم، كما دأبت واتقنت المقاومة، من فجر التاريخ حتى اليوم مهما كان المهاجِمون والمحاصِرون! غزة لا تكترث لا تعبأ تتركني أنا ابنتها الصغيرة الهاربة غصبًا عني على مبعدة منها، بعيدة لدرجة، كأنها أحيانًا تدعني أسمعُ تذمّرها. تكلمي! انطقي! تخاطبني: احكي بدلًا عني قولي لهم ماشئتِ عني. أسيغيّرُ هذا شيئًا؟ صيحي وأعلني أوراقك الصغيرة على الملأ على الإنسانية البيضاء. لكني أنا مشغولةٌ بالشفافية، مقرفةٌ شفافيتي! فليروا فيها ما شاءوا. ليفعلوا أو لا يفعلوا شيئًا والزمن سيحكم إنه القاضي الأكبر أمام الأبدية. ماذا بعد؟ اشتعالٌ فاشتعال، ثم... هدوء، يعقبه اشتعال فهدوء من جديد، هكذا كان الحال، على الدوام.

لكن غزة، أجيبُها، هل أجرؤ على طلبِ شيء، على طرحِ سؤال جدّ صغير؟ في الحقيقة إنه شيء وليس سؤالًا. لكني أخجلُ من طرحه عليك، من طلبِه منك. حسنًا لأقله. هذا الشيء – السؤال الذي يهمسُ بداخلي منذ العدوان الأخير الذي تعرضتِ له، منذ الاشتعال والفولاذ القاتل والتدمير، منذ كل هؤلاء الموتى والجرحى. نعم، سأتجرأُ على طرحِه بصوتٍ منخفض بل خائف: وبيتي، غزة؟ بيتي الذي في قلب المدينة، بيتي الذي

ولدتُ فيه، هذا الذي لا يبعدُ كثيرًا، تعرفينَه بيت حارة الدرج. نعم! أدري، إنَه هناك حيث كان القصفُ في 2002 وحين قُتل ناشطٌ من حماس ومعه أربعة عشر مدنيًا من النساء والعجائز والأطفال. أترين؟ أنا على علم بكل ما جرى. إنَها الأخبار! نعم، غزة! مذبحة جديدة ولم يحن الوقتُ الذي نقول فيه إنها المذبحة الأخيرة. لا، هذا الوقت لم يحن بعد. تتحملين، كما تحمّلتِ دائمًا... لكنني أعود لتساؤلي، لبيتي، هذا الذي ولدت فيه، بيتي الموجود في حارة الزيتون. هل مازال إلى اليوم قائمًا؟ أو أنه أضحى حطامًا؟ هل قُصف؟ أشاهدُ التلفزيون وحين يمررون كلَّ هذه الخرائط المفصلة للمدينة، تخرج عيناي من مقلتيهما لشدة ما أحدق وأدقق لأحدد موقع بيتي. لا أفقه شيئًا من كل هذا، يذيعون أن كل حيّ الزيتون تدمَّر، وأتساءلُ هل حارة الزيتون توجد في حيّ الزيتون؟! وحين أهاتف هؤلاء الذين بقوا هناك وأسألهم، يراوغون في إجاباتهم. لعلّهم لا يدركون كم أنا متعلقة ببيتي الأول؟ وكيف لهم أن يدركوا؟! رحلتُ من وقت طويل ومرّ كثيرٌ من الأحداث، من الموت، من التدمير... أشعرُ باستحياء يمنعني من الإلحاح في السؤال، كيف لي أن أطلبَ تفاصيلَ عن بيتي وهم تحت نار القصف؟ لكن، أنتِ قولي لي يا عزيزتي، أخبريني بصراحة عمّ حلّ ببيتي؟ بيتي ببوابته الزرقاء، بيتي ذو الغرف الثلاث المطلة على ليوان، حيث عاشت جدتي وأمي وأنا وأخي. بيتي هذا الذي كنت أخرج منه لألعب مع حسني رفيق سنواتي الثلاث. ستقولين لي أنني كنت صغيرة

جدًا وكل ما أسرده يدعو للسخرية! كيف لنا أن نتذكر هذه الفترة؟ أنا أتذكّرُها لا أعرفُ كيف، ولكني أتذكرها. تغذّيتُ من هذه الذكريات، حرصت عليها طيلة وجودي، تعلمين هذا جيدًا، أنت يا غزتي القاسية! تتمددين في مساماتي، في ذاكرتي المُرهقة وأنا، اللاجئة الغائبة الحاضرة. أُنْهِكُكِ أيضًا وأيضًا. حاضرةٌ وأرفع يدي علامة الحضور دائمًا من أجلك، مشتتةٌ في الأماكن ومنفيةٌ ولا أتنازل، انتمائي لك. "طز" فيك غزة، أرفضُ أن تتخلي عني، أرفضُ أن تنسيني. "طز" فيك غزة. ثلاث سنوات فيك تكفي لتفسدَ الوجود! أنت لم ترغبي أبدًا بالرحيل، بالاختفاء، لم يبتلعْكِ البحرُ كما حَلِمَ الغازون. ميناء انتيدون مازال هنا وتضاعفت مساحته مرات، وها أنت الآن جامحة مشوهة وأمّ مربية، عجوز، قبيحة ببثورها! لا تكفّين عن الولادة وأنت تدفنين موتاك، أطفالك صغارًا وكبارًا الدائرون طوال اليوم في دوامة أزقتك ودروبك واصطبلاتك لا يكفون عن اللعب، بأيديهم رشاشات من خشب، من معدن، من مواسير... وأنت لا تتفوهين ولا تقولين لهم شيئًا. إنهم مقاومتك، تتركينهم يفعلون ما يفعلون حتى لا تنهزمي. لم يعد بمقدورِك إطعامهم ولا تعليمهم كما تفعلُ بلاد أخرى غنية ومتحضرة. إذا نحن نكنُّ لكِ الحقدَ غزة حبيبتي ونشعر بالعار من عجزك عن الأمومة، نحقد عليك... هذا كل شيء، فقط لأنك أنت فنطلق لأنفسنا العنان ضدك ونجن. هيا يا غزتي! لندع أنفسَنا في مناجاةٍ مخزيةٍ، فيما بيننا لا أحد غريب، نشكّلُ كلا واحدًا، وحشٌ صغيرٌ ممزق. نبضُ

قلبي أنتِ وروحي غزتي، روحي إلى عربدة طقوسك. يمكنك عرض كل شي على السماوات غير الرحيمة تجاهك، هيا اعرضي نفسَك وخذي كل المساحة وكل العيون لكل هؤلاء الأوغاد.

نعم، روحي يا غزتي! غزتي ديسمبر 2008 – كانون الثاني 2009. غزتي الحرب الأخيرة وغزة الحروب القادمة لا محالة...